مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

الوجود البشري في السودان وتطوره الحضاري حتى نهاية المجموعات الحضارية

د. صديق مهدي عبد الرحمن
أستاذ مشارك بقسم التاريخ والحضارة
كلية الآداب – جامعة بخت الرضا
جمهورية السودان

د. الباقر بدوي عمر الشيخ
مدير الإدارة العامة
للسياحة والآثار بولاية النيل الأبيض
جمهورية السودان

مُلَخّص

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز الدور الحضاري للوجود البشري في السودان، مع تتبع تطور هذا الوجود منذ العصور الحجرية القديمة حتى المجموعات الحضارية المختلفة التي نشأت في السودان. وتعتمد الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي المقارن، مع التركيز على تحليل المصادر الأثرية والتاريخية التي تسلط الضوء على الفترات الأولى لتاريخ السودان. لقد استهدفت الدراسة بشكل خاص مواقع الآثار المكتشفة في مختلف مناطق السودان، مع التركيز على الأدوات الحجرية والفخارية التي استخدمها الإنسان السوداني في تلك الحقبة، مما يعكس التطور الثقافي والاقتصادي له. كما تناولت الدراسة تطور الحضارة السودانية من خلال استعراض حضارات العصر الحجري القديم، العصر الحجري الحديث، وحضارات المجموعات المتعاقبة. توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج المهمة، أهمها: وجود العديد من المواقع الأثرية التي تعود إلى فترات ما قبل التاريخ، واستخدام الإنسان السوداني لأدوات حجرية وفخارية تشير إلى تطوره التدريجي في مجالات الحياة المختلفة. كما أكدت الدراسة على التكامل الحضاري الذي شهدته المنطقة منذ العصور القديمة، بالإضافة إلى أن الدراسات الحديثة تواصل اكتشافات جديدة تضيف إلى معرفتنا حول تلك الحضارات. أما بالنسبة للتوصيات، فتدعو الدراسة إلى تعزيز جهود البحث والتنقيب في المناطق الأثرية السودانية، وتوثيق النتائج في المتاحف السودانية والدولية لضمان الحفاظ على هذا التراث الحضاري الهام. كما تشير إلى أهمية دعم الدراسات الأكاديمية في مجال تاريخ السودان القديم لتوفير المزيد من الفهم والوعي حول الدور الحضاري الذي لعبه الإنسان السوداني في تشكيل التاريخ الإنساني.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٠ يناير ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٠٣ مارس ٢٠٢٥

كلمات مفتاحية:

حضارات السودان القديم؛ تاريخ السودان القديم؛ الإنسان السوداني؛ المجموعات الحضارية؛ التاريخ السوداني

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.452708

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

صديق مهدي عبد الرحمن، الباقر بدوي عمر الشيخ. "الوجود البشري في السودان وتطوره الحضاري حتى نهاية المجموعات الحضارية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد الحادي والسبعون؛ سبتمبر ٢٠٢٥. ص ٢٩ – ٣٨.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Corresponding author: siddig527@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كَان التَّارِيخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

يزخر السودان بموروثه الحضاري الضارب الجذور في القدم، حيث لازالت الإثار والمواقع الأثرية الخالدة منتشرة في كل ربوعه، بعصور ما قبل التاريخ ومروراً بالمجموعات الحضارية، والتي تقف جميعها دليلاً وشاهداً على استمرارية الحضارة السودانية دون انقطاع، وكل هذه الفترات التاريخية المتعددة لها مجاميع متحفيه ومجموعات فنية. إن أكثر الكائنات الحية إحساساً بمرور الزمن هو الإنسان، وهذا ما يفسر حنينه الدائم للماضي وحديثه المستمر عنه ورغبته الشديدة في المحافظة على الإرث الثقافي والتعريف به، وتبدو له آثار الماضي الحضاري ككنوز لا مثيل لها، فيجد نفسه ملتزماً بموجب احترام منجزات الآباء والأجداد بالمحافظة على الموروث الثقافي. والإنسان السوداني لا يخرج عن هذا لذا وجب عليه الاهتمام بحضارات السودان والتعريف بها من خلال طرائق عرضها وإدارتها إدارة سليمة رشيدة فعالة لما تلعبه من دور هام في المحافظة على هذا التراث الحضاري.

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز الدور الحضاري للوجود البشري في السودان وتتبع التقدم الثقافي له في مرحلته الاولى. وتكمن أهمية هذه الدراسة في تبيان الاثر الحضاري البشري في للفترات الأولى من تاريخ السودان القديم. وقد اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي المقارن بالاعتماد على المصادر والمراجع المهتمة بدراسة تاريخ الحضارة السودانية.

أولاً: العصر الحجري القديم

وفي هذه الدراسة نحاول أن نلقي بعض الضوء على الأساس الحضاري الذي قامت به حضارات السودان القديم، تبدأ هذه الدراسة بمبحث أول يحتوي على دراسة وصفية لحضارات العصر الحجري القديم في السودان، وقبل ذلك يجب أن نوضح أن هذه الفترة بالذات ما زالت الأبحاث فيها في طور النمو كما أن الحفائر تعطينا كل يوم مادة جديدة تصحح بعص أفكارنا وتملأ الكثير من الثغرات. حتى الآن تتفق الأبحاث الأثرية التي تمت في أنحاء مختلفة من السودان على أن أقدم حضارات السودان الحجرية أقامها أقوام من العنصر الزنجي الذي يختلف عن أي من العناصر الموجودة حالياً بالمنطقة، وقد اكتشف عالم الأثار أركل[1] مخلفات حضارية للعصور الحجرية القديمة وأهمها ما عثر عليه من أدوات، كان أوضحها ذلك السلاح المعروف بالفأس اليدوية في الموقع المعروف باسم خور أبو عنجة (Khur Abu Anga) ويقع في مدينة أمدرمان بالضفة الغربية للنيل،[2] على بعد كليومتر واحد من مكان التقاء النيل الأبيض بالأزرق، هناك عُثر على أدوات من العصر الحجري القديم الأسفل بنوعيه الشيلي والأشولي، وهما أقدم أزمنة العصر الحجري القديم على التوالي، كما عُثر على أدوات ترجع إلى تاريخ يسبق الحضارة النيلية.

وفي مكان آخر يسمى وادي سيرو (Wadi Sero) يقع غرب النيل أيضاً على بعد ٢٤ كم شمال أمدرمان عُثر على أدوات من العصر الأشولي المتأخر، كما عُثر أيضاً على مصنوعات أشولية في وادي عفو (Wade Afu) الذي يقع إلى الجنوب من أمدرمان بحوالي ٨٠ كم غرب النيل الأبيض، يعتبر هذا الموقع أقصى نقطة جنوباً يعُثر فيها على أثار تنتمي إلي العصر الحجري القديم في الحدود الجنوبية للسودان، أما غرباً فتعد مدينة الفاشر أقصي نقطة وجدت فيها أثاراً للعصر الحجري القديم داخل حدود السودان، حيث عُثر علي بعض الأثار علي سطح الأرض في الفاشر، وهي موجودة حالياً في متحف آكسفورد بإنجلترا، لكن يشكك بعض العلماء في انتمائها أصلاً للفاشر.

وفيما يتعلق بمنطقة النيل الأزرق فقد عُثر عند مدينة سنجة (Singa) في مطلع عام ١٩٢٤ على جمجمة لإنسان وبعد فحصها تبين أنها تنتمي إلى نوع قديم من إنسان من جنس (Proto-bubman)، وتعد هذه الجمجمة من أقدم المخلفات البشرية التي تم العثور عليها في السودان على الإطلاق، وقد دلت الأبحاث على أن ذلك النوع من البشر عاش في الفترة الأخيرة بين العصر الحجري القديم الأسفل والعصر الحجري القديم الأعلى، والملاحظ أن مخلفات ذلك الإنسان في كل من سنجة وأبو حجار (Abu Hugar) التي تقع إلى الجنوب منها، حيث أنه على عمق ٨,٤٠٠ متراً من سطح الأرض نجد أن التربة تخلو من مخلفات إنسان العصر الحجري القديم حيث يندر فيها ظهور الفأس اليدوية

وقد وضعها (Arkell) في الفترة الواقعة بين العصر الحجري القديم الأسفل وبين بداية العصر الحجري القديم الأعلى (الصناعة الشيبلية). كان إنسان ذاك العصر صيادًا يعيش على صيد البر والبحر وعلى ما يجمعه من ثمار الأشجار، فلم توجد أي مخلفات تدل على معرفة الزراعة أو لاستئناس الحيوان.

خلال فترة العصر الحجري القديم كانت الصحراء الحالية تمتلئ بالحياة النباتية والحيوانية[٣] فقد أثبتت الاكتشافات الجيولوجية التي قامت بها البعثات الحديثة في بلاد النوبة أن النيل قبل ان يشق مجراه الحالي في هضبة النوبة منذ حوالي ٥٠,٠٠٠ سنة كانت له عدة فروع داخل الصحراء، وعلى طول تلك المجاري المائية القديمة عاش إنسان العصر الحجري وعُثر على أثار حضارية تنتمي إلى ذلك العصر على مسافة ٢٠ ميلاً داخل الصحراء، ففي حدود حوالي ١٠,٠٠٠ ق.م ازدادت نسبة الأمطار التي كانت تسقط على منطقة النوبة مما هيأ الجو المناسب لحياة العديد من الحيوانات الضخمة كأفراس النهر والفيلة والزراف ولابد وأن تلك الصور والرسوم الصخرية المنتشرة على صخور النوبة تعد تسجيل قام به إنسان ذلك العصر لما حوله من طبيعة. كما اهتم إنسان العصر الحجري القديم بدفن موتاه بالقرب من مساكنه ووضع معهم ما ظن أنه يعينهم على حياة ما بعد الموت من متاع وأسلحة حسب اعتقاداته الدينية. وقد لوحظ أن السكاكين ورؤوس السهام الحجرية المستعملة كانت من نوع يشبه ما كان موجودًا في شمال الوادي في العصر الحجري القديم الأعلى، وأيضًا استعمل خطاف لصيد الأسماك.

أما المواقع شمال الخرطوم التي وجدت فيها أثارًا تنتمي للعصر الحجري القديم فهي ملتقي خور الهودي مع نهر عطبرة (قبل التقائه بالنيل بحوالي ١٦ كم)،حيث إنه على بعد ٣ كم تقريبًا من نقطة التقاء الهودي مع العطبرة عثر على أثار أشولية وشيلية، ثم وبالقرب من الشلال الخامس عند وادي الشيخ هلال شمال جبل النخرة وجدت أثار أشولية وشيلية، أيضًا على قمة جبل نوري (Nuri) جنوب الشلال الرابع عُثر على أثار من الحضارة الأشولية والشيلية، كذلك بالقرب من تنقسي (Tangasi) جنوب نوري أيضًا عُثر على أثار عبارة عن قطع تمثل السلاح المعروف بالفأس اليدوية. كما أن هناك أماكن أخرى عديدة مثل وادي القعب (Gaab) الذي يقع بالقرب من دنقلا على ضفة النيل الغربية، ثم وادي الخور في الضفة الشرقية للنيل، وفي جزيرة صاي وعبرى (Abri). أما المنطقة الصخرية المعروفة باسم (بطن الحجر) فلم تمدنا بأي أثار من العصر الحجري القديم الأعلى، هذا إذا استثنينا واحة سليمة التي تقع إلى الغرب من النيل على مسافة بعيدة حيث عُثر فيها على أثار أشولية وشيلية متأخرة، أيضًا عُثر بالقرب من وادي حلفا على مخلفات ترجع إلى العصر الحجري القديم الأعلى.

ثانيًا: حضارة العصر الحجري الحديث في السودان

عُثر على أحد أهم مراكز العصر الحجري الحديث الحضارية في موقع الشهيناب في الضفة الغربية للنيل على بعد حوالي ٤٨ كم شمال أمدرمان، تتميز تلك الحضارة بأنواع الفخار الأسود أو ذو الحافة السوداء، لكن لم يتم العثور على مدافن لأصحاب تلك الحضارة سواء داخل المساكن أو بعيدًا عنها، وبسبب عدم توفر المادة الأنثروبولوجية لا يمكن الجزم إن كان أصحاب حضارة العصر الحجري الحديث من نفس عنصر أصحاب حضارة العصر الحجري القديم أصحاب الحضارة السابقة، أم أنهم من العنصر الأسمر (Brown race)، وعلى أي حال فإن المخلفات الأثرية تدل على أن إنسان العصر الحجري الحديث بالسودان قام بتطوير أدواته واستعمل الكثير من حُلى الزينة. يعتقد أن إنسان العصر الحجري الحديث في الشهيناب قد استطاع أن ينتقل عبر النيل بما يشبه القوارب البسيطة التي ربما استعملها أيضًا للصيد، ولم يعُثر على أي شواهد تبين معرفة إنسان ذلك العصر لمبادئ الزراعة على الرغم من معرفته لاستئناس بعض الحيوان وتدل المخلفات الحيوانية أن الطقس قد بدأ يتغير عن العصر السابق.

تنتمي لتلك الحقبة من العصر الحجري الحديث الكثير من النقوش الصخرية التي عُثر عليها في العديد من مواقع الصخور في النوبة، والجدير بالملاحظة أن الكثير من مظاهر حضارة العصر الحجري الحديث

بوسط السودان لها نظير معاصر في مواقع من شمال وادي النيل، مثل مظاهر حضارة العصر الحجري الحديث بالفيوم هي أقدم حضارات العصر الحجري الحديث في مصر على الإطلاق، حيث أن كلاهما ساد في فترة الألف الرابعة ق.م، بالرغم من مساحة الأف ميل أو يزيد التي تفصلهما، أما تلك المظاهر فتنحصر في: كثرة استعمال النار في الطهي واستئناس بعض الحيوانات وعدم ظهور الزراعة، مع عدم دفن الموتى داخل المساكن، واستعمال نوع معين من رؤوس السهام، كذلك استعمال أنواع متشابهة من الفخار وخرز الزينة.[٤]

يؤكد ذلك الصلة الحضارية بين شطري الوادي منذ أقدم العصور، ورغم إننا ما زلنا نفتقر إلى الكثير من المعلومات عن الفترة الواقعة ما بين حوالي عام ٣٨٠٠ ق.م، وحوالي عام ٣١٠٠ ق.م بالنسبة للحضارة السودانية، وهي نفس الفترة التي ظهرت فيها حضارات عصر ما قبل الأسرات في مصر.

ثالثًا: حضارة المجموعات

١/٣-المجموعة الأولى

حوالي عام ٣١٠٠ ق. م بدأت تظهر في شمال السودان مجموعة حضارية جديدة لها صفات حضارية متميزة عن ما سبقها في المنطقة أسماها مكتشفها رايزنر بالمجموعة الأولى (A Group)، معظم مخلفات هذه المجموعة عُثر عليها في النوبة السودانية والمصرية، لم يعثر على أكثر من جبانتين لأصحاب هذه المجموعة في السودان حتي الآن واحدة في فرص شمال وادي حلفا، والأخرى في جمى جنوب وادي حلفا، مع العثور علي العديد من مخلفات تنسب لهذه المجموعة الحضارية في أنحاء متفرقة من شمال السودان ووسطه وبخاصة بالقرب من أمدرمان، وتعد الأدوات النحاسية التي عُثر عليها في مقابر المجموعة الأولى في فرص هي أقدم ما عثر عليه من أدوات معدنية في السودان القديم حتى الآن.[٥]

تعطي العديد من مصنوعات الحضارة المصرية المستوردة والتي تم العثور عليها في مقابر المجموعة الأولي تاريخًا للمجموعة يعاصر منتصف الأسرة الأولى في مصر (٣٠٠٠ – ٢٩٠٠ ق.م). ونجد أن سمات حضارة المجموعة الأولى في شمال السودان وفي النوبة المصرية تظهر بوضوح منذ وقت ما قبل عصر توحيد شطري شمال الوادي وتكوين حكومة متحدة تحت زعامة أول ملوك الأسرة الأولى، كما يبدو في ذلك الوقت أن بلاد النوبة قد وفد عليها أقوام جدد قادمون من الشمال لا يختلفون كثيرًا عن العنصر البشري الذي كان موجودًا في مصر والمنتمي إلى ما قبل الأسرات من حيث العنصر البشري وسمات الحضارة. أخذت حضارة المجموعة الأولى تزدهر في أقاليم النوبة أيام الأسرة الأولى في مصر بعد أن كانت النوبة تفتقر كثيرًا للعنصر البشري ويبدو ذلك بوضوح في عدد ومحتوي الجبانات التي تنتمي إلى عصور أقدم. وأهم ما يميز حضارة المجموعة الأولى أنواع الفخار الذي عُثر عليه مع الدفنات، ومنها القدور الكبيرة ذات اللون الأحمر الفاتح (الوردي) والأواني الصغيرة ذات الحليات التي تعتبر تقليدًا للسلال النباتية، وكان دفن الموتى يتم بوضع المتوفى أما في حفرة بيضاوية أو يضاف لتلك الحفرة حفرة أخرى جانبية تشبه الكوة الكبيرة يتم وضعه فيها، وتكون حفرة الدفن على عمق قد يبلغ ١,٣٠ متر[٦] ويرقد الميت في وضع القرفصاء على جانبه الأيمن ويكون الرأس ناحية الغرب، وكما هو الحال في مقابر ما قبل الأسرات في مصر كان الميت يحاط بعديد من الأواني الفخارية والحجرية وبعض الأدوات النحاسية ثم عقود الزينة من الأحجار نصف الكريمة والمحار.

وقد اكتشفت البعثة النمساوية العاملة في منطقة النوبة رسوم صخرية ترجع إلى المجموعة الأولى،[٧] وكذلك كشفت البعثة الإسكندنافية عن تمثالين صغيرين أحدهما لفتاة صغيرة والآخر لامرأة وجدا في مقبرة لسيدة من المجموعة الأولى .أما أثار ملوك الأسرة الأولى التي عاصرت حضارة المجموعة الأولى على قلتها فيجب أن تدرس بعناية مثلما دُرست لوحة نعرمر التي اقترن فيها الرمز بالصورة والتي بواسطتها أمكن التأكد بصورة تكاد تكون قاطعة من قيام الحكومة المتحدة المصرية على يد نعرمر، فيجب كذلك أن يدرس الأثر المسجل على صخور جبل الشيخ سليمان في غرب النيل عند كور إلى الجنوب من بوهين (نقل إلى متحف السودان القومي)،

والخاص بالملك جر من أوائل ملوك الأسرة الأولى المصرية لمسألة بالغة الأهمية بالنسبة لدراسة تاريخ السودان القديم، ذلك أن هذا الأثر وجدت فيه نموذج من المحاولات الأولى للتسجيل بالرمز الذي يكاد يقرب من الكتابة في أول أطوارها، حيث أنه هنالك صور الاسم مكتوبًا كما هي العادة المتبعة في كتابة الأسماء الملكية بالعلامة التي تقرأ في الهيروغليفية ﴿جر﴾ فوق ما يشبه تمثيل لواجهة القصر الملكي وفوقها جميعًا رسم الصقر رمز الإله حورس ورمز الملك كوريث للإله حورس على العرش، وهو المعنى المأخوذ من التقليد القديم الذي تحول إلى أسطورة منذ أن قامت الوحدة الأولى في مصر قبل وحدة نعرمر التاريخية هناك حسب قول الأسطورة، فقد كان يحكم البلاد آلهة وكان الإله حورس هو القائم على تلك الوحدة العريقة ومن يومها تيمن الفراعنة باسمه وأضافوا إلى أسمائهم اسم حورس.

أما أمام اسم الملك جر المذكور فقد جري تصور أحد الأسرى واقفًا بينما قيدت يداه خلف ظهره بحبل، وتصوير الأسرى مقيدين بتلك الصورة ظل معمولاً به في التصوير الرمزي طوال التاريخ المصري القديم، وأمام الأسير رسم رمزًا لما يشبه المياه ولعل المقصود به أن موقعة حربية بين جنود ملك مصر وبين أهالي المنطقة حدثت في منطقة الجنادل حيث الملاحة صعبة، أو ربما يعني ذلك أن القتال قد دار في النهر. ثم صور الفنان دائرتين داخل كل منهما خطين متقاطعين عموديًا وفوق أحدهما طائر يشبه الصقر وفوق الأخرى علامة غامضة، تلك الدوائر عُرفت في الكتابة الهيروغليفية بعد ذلك على أنها رموز لكلمة مدينة بمعناها القديم، وربما كان المعني المقصود أن القتال الذي دار في منطقة الجنادل قد نتج عنه إخضاع العصاة في مدينتين بمنطقة الملاحة الصعبة بالنوبة.

بعد ذلك حاول الفنان تفسير الرموز السابقة فصور مركبًا مصريًا صميمًا مربوطًا في مقدمته أحد الأسرى بحبل يلتف حول رقبته ويديه الموثوقتين خلف ظهره، وأسفل المركب وتحت الأسير صور أربعة رجال صرعى، وكما هي العادة في الكتابة الهيروغليفية التي أخذت محاولاتها الأولى ترسخ وتأخذ شكلها النهائي خلال عصر الأسرتين الأولى والثانية نجد أن الفنان هنا يحاول كتابة الحدث بالرموز المتعارف عليها ثم يفسره أخيرًا برسم يقرب إلى الصورة منه إلى الكتابة. ولو أضفنا إلى نقش الملك جر السالف ذكره أمر العثور على كثير من صناعات الأسرة الأولى في المقابر التي ترجع إلى حضارة المجموعة الأولي، وتلك القطع التي تتمثل في أواني حجرية من الطراز الخاص بعصر الأسرتين الأولى والثانية داخل قلعة بوهن إذن لتمكنا من إرجاع أول عهد المصرين بارتياد بلاد النوبة إلى أيام الأسرة الأولى في مصر، وليس هذا بمستبعد لمعرفتنا أن ملوك الأسرتين الأولى والثانية قد احتاجوا لذهب النوبة الذي صنعوا منه كثيرًا من آثارهم الملكية، فكما حدثتنا نصوص الأهرام التي يرجع الكثير منها إلى ما قبل تاريخ تسجيلها في أيام الدولة القديمة بكثير كان الذهب معدنًا ملكيًا مقدسًا وكل ما يخص فرعون فهو ذهبي مقدس.

ومما لا شك فيه أنهم حاولوا بتلك الحملات إخضاع هذه البلاد ليضمنوا وصول ذلك المعدن المقدس إلى القصر الملكي في الشمال. ظلت الأحوال مستقرة واستمرت حضارة المجموعة الأولى في الازدهار إلى أن وصلت لزمن الملك خع – سخم (وليس خع- سخموى كما ذُكر،[٨] هناك يبدو أن الأحوال قد اضطرته إلى إرسال حملة إلى الجنوب من حدود مصر،[٩] فضمن الآثار القليلة التي تم العثور عليها في (هيراكن بولس) جزء من لوحة صور عليها تسجيلاً لانتصاره على أهل الجنوب (تاستى) ويلاحظ أن الشخص الذي صور ليرمز لأهل الجنوب ملتحيًا ويعتبر هذا من أقدم الصور التي تمثل أهل الجنوب التي وجدت. يظهر من ذلك أن حملات خع- سخم قد قضت على حضارة المجموعة الأولى في النوبة، ومع بداية عهد الدولة القديمة تظهر سمات حضارية جديدة تختلف في مجموعها عن مميزات حضارة المجموعة الأولى.

٢/٣-حضارة المجموعة الثانية

تجدر الإشارة إلى أن كثير من العلماء يعترض على وجود تلك الحضارة أصلاً والتي عاصرت زمن الدولة القديمة في مصر، أي الفترة من ٢٨٠٠- ٢٢٠٠ ق.م وتتميز بفقرها.

أما أبرز الحملات التي تحمل إشارة ربما لهذه المجموعة وتم تسجيلها بصورة واضحة تلك الحملة التي قامت أيام عاهل الأسرة الرابعة الملك سنفرو ضد أصحاب حضارة تلك المجموعة حيث سجلت أخبارها ضمن حولياته على حجر بالريمو المشهور، ومن الأرقام التي ذكرها سنفرو نستطيع أن نكون فكرة عن مدى مقاومة أهل البلاد وعن محاولة المصريين الاستفادة من العنصر البشري، فرغم أن تلك المعلومات قد سجلت بطريقة مقتضبة جدًا كما اتبع في كل الأحداث المسجلة على الحجر المذكور إلا إنه قد وردت أرقام الأسرى التي بلغت ٧٠٠٠ أسيرًا بالإضافة إلى ٢٠٠,٠٠٠ ألف رأس من الأغنام والماشية، وقد أطلق سنفرو على سكان الجنوب وقتذاك اسم (نحسيو) وكان المقصود بهذا التسمية كل القبائل التي تسكن جنوبي الحدود المصرية.

يبدو طبيعيًا أن نتصور سبب اضمحلال الحضارة التي عرفت بحضارة المجموعة الأولى وكذلك حضارة المجموعة الثانية في شمال السودان وفي النوبة المصرية، فلا بد من أن هجمات خع- سخم ومن بعده الملك سنفرو كانت العوامل الحاسمة، وبعدهما كثر الحديث في الآثار المصرية عن البعثات التعدينية والتجارية من أجل الحصور على منتجات الجنوب ولعل الذهب كان أهمها جميعًا. بدأ في الدولة المصرية القديمة منذ الأسرة الرابعة استعمال حجر الديوريت في صناعة التماثيل الملكية مثل تمثال خفرع الموجود حاليًا بالمتحف المصري، وقد دلت الأبحاث على توفر هذا الحجر في المنطقة الواقعة إلى الغرب من تشقه بحوالي ٨٠ كيلو متر، حيث عثر الأثريون في منطقة المحاجر على نقوش بأسماء الملوك خوفو ومنكاورع وساحورع واسيسى من الأسرتين الرابعة والخامسة.

جدير بالذكر إن أحدث الأبحاث في منطقة بوهين إلى الجنوب من وادي حلفا قد كشفت النقاب عن وجود معدن النحاس هناك ووجود مدينة سكنية كبيرة محصنة للعمال والمشتغلين من المصرين، بالإضافة إلى عدد قليل من أهل المنطقة ينتمون إلى المجموعة الحضارية الثالثة، رغم أن كثيرًا من الدلائل تشير إلى أن تلك المدينة ترجع بتأسيسها إلى العصر العتيق أي قبل قيام الدولة القديمة، فبالإضافة إلي العثور علي أنواع من الفخار والتي تشبه فخار الأسرة الثانية المصرية والتي يحتمل أن استعمالها قد استمر حتي أيام الأسرة الرابعة، هناك أيضًا طراز الطوب الكبير الذي تم تشيد حوائط المدينة به فهو من نفس طراز الطوب الذي بني منه عمائر الأسرة الثانية في المواقع المصرية.

كما قد عُثر على أسماء كل من الملوك خفرع ومنكاورع من الأسرة الرابعة ثم ساحورع ونفرإركارع ونيوسرع من ملوك الأسرة الخامسة سواء على شكل أختام أو على قطع الفخار وغنى عن البيان أنه بناء على اكتشاف تلك المدينة السكنية التي قامت لتصبح مركزًا لاستخلاص معدن النحاس فلابد أن مناجم ذلك المعدن كانت وما تزال موجودة في مكان ما بالقرب من بوهين تنتظر اليوم الذي يكشف فيه النقاب عنها.[١٠] هكذا يضاف إلى محاصيل ومنتجات النوبة معدن آخر هو معدن النحاس فهل ورد ذكره في النصوص المصرية ضمن محصولات النوبة، أم إن استخلاص النحاس من المنطقة المحيطة ببوهين اقتصر فقط على زمن الدولة القديمة ثم تلاشي؟ الواقع أن هذا المعدن لم يرد ذكره ضمن قوائم منتجات النوبة أيام الدولة الحديثة كما أن الآثار التي وجدت بالمدينة المذكورة كانت قاصرة على زمن الدولة القديمة فقط ولم تتعداها.

إن علاقة مصر وبلاد النوبة أيام العصر العتيق تحتاج إلى كثير من البحث والجرأة أيضًا في استخلاص النتائج، فمثلاً هناك أثر الملك خع سخم من الأسرة الثانية والذي يسجل بطريقة مقتضبة انتصارًا على أهل الجنوب، وفيه أشير إلى اسم تلك البلاد بالإشارة التي تعارف عليها طوال التاريخ المصري القديم باسم (تاستى) وبشكل واضح ليس فيه تردد المبتدئين مما يدل على معرفة سابقة بمدلولها، ولو أخذنا في الاعتبار العديد من الشواهد السالفة الذكر لما أصبح هناك مجالاً للتردد في حقيقة أن المصرين – وعلى الأخص في النصف الثاني من العصر العتيق – قد ارتادوا تلك البقاع من بلاد النوبة وعرفوها سواء للتجارة أو لصد الغارات، ويبدو ذلك بشكل واضح خلال التاريخ الطويل للأسرة الثانية حيث من المتعارف عليه أن العصر العتيق قد دام نحو أربعمائة وخمسين عامًا، وإن بعض المؤرخين يقدرها بحوالي خمسة قرون ونصف قرن، وهي فترة

كافية بلا شك لرسوخ أقدام الحضارة المصرية التي مرت خلال تجارب رائدة لإرساء دعائم حضارة عريقة وذلك قبل بداية العصر العتيق وقبل قيام الوحدة على يد نعرمر – منا مؤسس الأسرة الأولى في تاريخ الحضارة المصرية. وفي تلك العصور السحيقة أطلق المصريون على جيرانهم في الجنوب اسم (تاستيو) وسموا أرضهم (تاستي) بمعنى أرض أهل الأقواس، كما كتبوا أسمهم بالإشارة الدالة على الأقواس مع العلم بأن إقليم أسوان هو أول أقاليم الصعيد الواقع في أقصى حدود مصر الجنوبية، كان يطلق عليه نفس الاسم ولعلهم قصدوا بذلك أنه أقرب لأهل الجنوب. وبذا فهم كادوا أن يعتبروه ضمن أقاليم النوبة، والحقيقة أن أهل النوبة امتازوا منذ القدم بمهارة استعمالهم للأقواس والسهام في الأغارة، ودائمًا ما قامت بعض جماعاتهم بمهاجمة الحدود الجنوبية لمصر وكذلك البعثات العديدة للمصرين فيما وراء الشلال الأول، ويكاد يتفق الرأي على أن غارات أهل النوبة السفلي على حدود مصر في عصورها المختلفة وبخاصة في تلك المرحلة من التاريخ القديم إنما مردها إلى طبيعة البلاد الجغرافية التي أصبيت بالجفاف فقلت مواردها.[١١]

ازداد اهتمام المصريين بالجنوب منذ أواخر الأسرة الخامسة المصرية وأخذوا بتنظيم علاقاتهم بجيرانهم فيما وراء الشلال الأول فظهر منصب جديد هام أطلق على صاحبه (حاكم الجنوب) كانت مهمته سياسية واقتصادية، فهو المسئول عن حراسة الباب الجنوبي لمصر، والقضاء على الاضطرابات العديدة التي غالبًا ماسببتها هجرات غريبة عن المنطقة، كما كان يقوم بتنظيم التبادل التجاري بين حاصلات القارة وحاصلات مصر، أيضًا كان عليه أن يمهد وسائل المواصلات لبعثات التجارة والتعدين المصرية فيما وراء الشلال الأول حيث كان يشترط في شاغل المنصب عدا عن الخبرة بشئون التجارة أن يجيد لغات ولهجات القبائل المقيمة في النوبة ليسهل الاتصال بها، ويعد ذلك كأوضح مثال للدبلوماسية في العالم القديم. سميت أسوان بهذا الاسم ومعناه بالمصرية (السوق) وهي إشارة إلى مهمة المدينة الفعلية حيث كان يقيم بها حكام الجنوب وقد كشفت الحفائر عن سلسلة من المقابر الصخرية لهؤلاء الحكام من زمن الدولة القديمة، ومن أمثلة حكام الجنوب الحاكم أوني من زمن (الأسرة السادسة ٢٤٢٩-٢٢٥٨) الذي سجل حياته على صفحات قبرة بموطنه أبيدوس (نقل هذا النقش الهام إلى المتحف المصري بالقاهرة)، خدم أوني زمن الملوك تيتى وبيي الأول ومرنرع من الأسرة السادسة، ذكر أوني حاكم الجنوب ضمن ما ذكر أنه استعان بجنود من قبائل النوبة المختلفة مثل أرتت، البجا، يام، واوات، وذلك عند قيامه بتجهيز جيش لمحاربة البدو الآسيويين. كما كلف أوني من لدن ملكه بإحضار تابوت حجري كامل وقمة هرمية ليتوج بها هرم الملك في سقارة، من منطقة محاجر تدعى إبهيت بالنوبة على حد تعبيره. وفي مهمة أخرى أرسل أوني إلى واوات لإحضار خشب السنط اللازم لإعداد ثلاث مراكب للنقل وأربعة مراكب أخرى، فيبين كيف أن رؤساء ارتت والبجا قاموا بإمداده بالخشب اللازم وأنه استطاع أن ينجز تلك المهمة فأنزل المراكب إلى النيل بعد أن حملها بالكثير من حجر الجرانيت اللازم لبناء الهرم الملكي. لا جدال في أن إنشاء منصب حاكم الجنوب إنما هو تنظيم لعلاقة مصر بجيرانها في الجنوب وتهذيب للعلاقات الدبلوماسية بين الدول، وبداية وضع الأسس للدبلوماسية المصرية التي اتضح دورها فيما بعد قيام الدولة الوسطى، عندما أصبحت التقاليد الدبلوماسية راسخة.

٣/٣-حضارة المجموعة الثالثة

انتهت دورة من دورات التطور وقامت الثورة الشعبية العارمة وسقطت على أثرها أعتى وأقوى العروش حينذاك ونعني بها الدولة القديمة في مصر، فانقطعت الصلات التجارية المنتظمة بين السودان ومصر، وتذكر المصادر الأدبية التي تردد صداها بعدئذ أن جنود الجنوب الذين كانوا ضمن حرس فرعون وقتها قد ساهموا في إذكاء نار الثورة، ويحدثنا أمير إقليم أدفو أيام فترة المحنة الأولى في مصر بعد سقوط الدولة القديمة على جدران قبره في (المعلا) عن إرسال الحبوب إلى واوات إثر انتشار المجاعة هناك للمساهمة في حل الأزمة، وفي ذلك إشارة إلى استمرارية وجود الصلات بين مصر والنوبة في ذلك الوقت.[١٢]

كذلك ظهر الجنود النوبيون ضمن فرق أمراء الأقاليم أيام ازدهار الإقطاع بعد سقوط الدولة القديمة وكان لهم دور فعال في الصراع الذي احتدم بين الأقاليم بعضها البعض، حيث كون منهم الأمراء فيالق كاملة وحاولوا الاستفادة من شهرتهم في استعمال القوس والسهم في الإغارة. فعلى سبيل المثال كان أمير إقليم أسيوط يحتفظ في جيشه بفيلق نوبي، فإذا ما غادر الأمير هذا العالم أمر بأن يصنع نموذج لذلك الفيلق مع غيره لكي يوضع معه في القبر ويرافقه في رحلة الخلود، ويحتفظ المتحف المصري بالقاهرة بهذه المجموعة التي تجسد فكرة اهتمام القوم وتقديرهم لأولئك الجنود النوبيين. كما نلمح في تلك الفترة ظهور شعب جديد في منطقة النوبة السفلى سميناه بالمجموعة الثالثة التي كانت أقصى حدودها الشمالية في قرية الكبانية (Kubenieh)، الواقعة إلى الشمال من كوم أمبو،[١٣] أما حدودها الجنوبية فقد كانت في موقع فرص.[١٤]

كانت الحرفة الرئيسة لأهل تلك الحضارة رعي الأبقار وغيرها، كما تميزت حضارتهم بأنواع خاصة من الصناعات اليدوية أهمها الفخار حيث ينسب إليهم نوع معين من القدور السوداء ذات الزخارف بالخطوط البيضاء المتقاطعة، ويلاحظ عدم وجود فوارق كبيرة بين حجم المقابر المختصة بهذه الحضارة وكذلك فيما يختص بشكلها المستدير.

خَاتِمَةٌ

تعتبر هذه الدراسة خطوة مهمة في تسليط الضوء على الوجود الحضاري للبشر في السودان وتطوراته عبر العصور المختلفة. من خلال استعراض المواقع الأثرية والأدوات الحجرية والفخارية، تم التأكيد على أن السودان كان مركزًا حضاريًا هامًا في فترات ما قبل التاريخ وفيما بعد. وقد أظهرت النتائج أن الإنسان السوداني قد تقدم بشكل ملحوظ في مجالات مثل الصيد، صناعة الأدوات، وتطور الفخار، ما يعكس التقدم في تنظيم حياته اليومية وتعامله مع البيئة المحيطة به.

علاوة على ذلك، أظهرت الدراسة أن السودان شهد العديد من المجموعات الحضارية التي أثرت في الثقافة الإنسانية بطرائق متعددة. سواء كانت من خلال الأدوات التي استخدمها الإنسان القديم أو من خلال النقوش الصخرية التي خلّدها، فإن هذه الحضارات تسهم بشكل كبير في تشكيل الصورة الحالية لفهم التاريخ السوداني.

وبالنظر إلى ما تم التوصل إليه، فإن هذه الدراسة تفتح المجال لمزيد من الأبحاث التي قد تسهم في استكشاف جوانب جديدة تتعلق بتاريخ السودان الحضاري، فضلاً عن أهمية توثيق هذه الاكتشافات في المتاحف المحلية والدولية، لضمان الحفاظ على هذا التراث الثقافي الثمين.

الملاحق

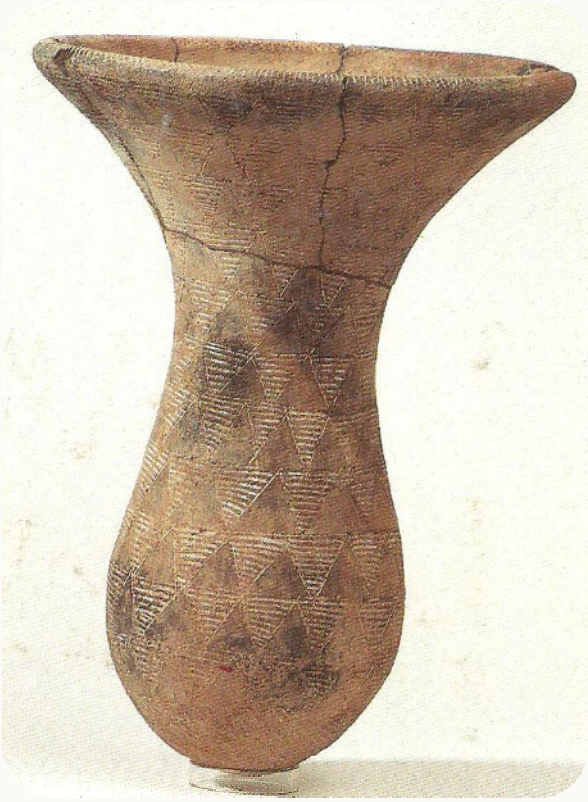

صورة رقم (١)
مزهرية في شكل كأس فترة العصور الحجرية
المكان: متحف بوزنان

صورة رقم (٢)
نماذج لفخار العصر الحجري الحديث
المصدر: أرشيف الهيئة العامة للآثار والمتاحف

صورة رقم (٣)
فخار المجموعة الأولى
المصدر: أرشيف الهيئة العامة للآثار والمتاحف

صورة رقم (٤)
حجرة تخزين للحضارة المجموعة الأولى
المصدر: أرشيف الهيئة العامة للآثار والمتاحف

صورة رقم (٥)
رأس تمثال أنثوي المجموعة الثالثة
المصدر: أرشيف الهيئة العامة للآثار والمتاحف

صورة رقم (٦)
قاعدة مزهرية حضارة المجموعة الثالثة
المصدر: أرشيف الهيئة العامة للآثار والمتاحف

صورة رقم (٧)
وعاء حضارة المجموعة الثالثة
المصدر: أرشيف الهيئة العامة للآثار والمتاحف

الإحالات المرجعية:

(1) Arkell, A. J. : A history of the Sudan, London 1955, "Visa Sudanese" in JKA, XXXVI p. 36
(2) Adams W. Y: Nubia, Corridor to Africa. Princeton, London, 1977.p.199.
(3) Emery-Kirwan, Eacavations between Wadi Ea Sebua and Adindan 1929-1931, Service des Atiquites de I' Egypte 1935.
(4) Arkell, op . cit .p 36.
(5) Emery.op . cit .p 100.
(6) Emery. op . cit . p 101.
(٧) محمد ابراهيم بكر، **مدخل إلى تاريخ السودان القديم**، (القاهرة: دار النشر والتوزيع، م٣، ١٩٦٩م).
(٨) محمد حامد إبراهيم: "**مقترح لمشروع متحف الآثار والتراث بالولاية الشمالية**"، **مجلة الدراسات الإنسانية**، جامعة دنقلا، كلية الآداب والدراسات الإنسانية، العدد ٣، يناير ٢٠١٠م.
(9) Junker, H. Bericht neber die Grabungen der Akademie der Wisaenachaften in Wien anf den Friedhogen von Ermenne im Winter 1911/12, Wien 1925.
(10) Verconfter ,J. New Egyptian texts from the Sudan, Kush IV, PP. 66-82
(11) Save-Soderbergh, T. Aegypten and Nubien. Lubien. Luad1941. p.55
(١٢) حسن حسين ادريس، **دور الاثار والمتاحف في تنمية السياحة في السودان، جامعة وداي النيل**، كلية الدراسات العليا ، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في الفلسفة (الاثار) ٢٠١٦م.
(١٣) أسامة عبد الرحمن النور: **دراسات في تاريخ السودان القديم**، إصدار مركز عبد الكريم مرغني الثقافي، أمدرمان، ٢٠٠٦م.
(١٤) أحمد محمد علي الحاكم وشارلس بونية: **كرمة مملكة النوبة – تراث أفريقي من عهد الفراعنة**، ترجمة أحمد محمد علي الحاكم، إشراف صلاح الدين محمد أحمد، نشر بروفيسير شارلس بونيه والهيئة القومية للآثار والمتاحف، طباعة شركة دار الخرطوم للطباعة والنشر والتوزيع، الخرطوم، السودان، ١٩٩٧م.